لقاء

في لقائه مع «العربي الجديد»، يتحدّث التشكيلي اللبناني عن معرضه الجديد المُقام حالياً في «غاليري صالح بركات» ببيروت، وعن «النغمة الداخلية» التي يقول إنّها ترافق أعماله منذ البدايات، ويصفها بأنّها خليط غريب يجمع بين المتناقضات: «أنا هكذا بين هذين الحدّين: النفور من الحياة والوقوع في حبّها في آن»

تنويعات اللوحة المُطلّة على العالم

أسامة بعلبكي أرسم من ملاحظاتي على الواقع المحلّي

أسامة بعلبكي

بيروت ـ **محمود وهبة**

لا يدري الناظر إلى أعمال الفنّان اللبناني أسامة بعلبكي، التي يُقدّمها في معرضه الجديد «ضوء داخلي» (يستمرّ في «غاليري صالح بركات» ببيروت حتى 20 تموز/ يوليو المقبل)، إلى أيّة مدرسة يردُّها أو إلى أيّ سياق؛ فهي تُوحي بأنها تبدأ وتنتهي في مكان واحد، دون أيّ لجوء إلى تشويه أو تلطيخ أو زوائد أو حشو. لوحةٌ تحاكي هذا العالم المأزوم وتتحاور معه وتنطلق في قراءته. اللوحات المتوافقة المتكاملة الساطعة والسابحة بأشكالها وتفاصيلها وموضوعاتها هي أرضية صالحة للحديث تتجاور مع كلام صاحبها، تتّخذ عمقها من لونها وضوئها الذي يُغلّفها، هي تأتي في سلسلة من المحاولات لاتخاذ أبعاد للعمل.

أمام لوحة المرفأ، ما زلنا نُعيد ونُكرّر فيديو تفجير المرفأ، نقرأ ذلك من عنوانها العكسيّ ونكتشف أنّ الوقت لا يمرّ بسرعة. مواضيع مشتّتة وأماكن ووجوه وناس في مدينة يراها الفنّان ويؤرشف لحظاتها من الداخل والخارج. من لوحة الإصبع على الجرح- الحائط، إلى البنايات والأجزاء ومناظر المدينة والضيعة وصورة الكنف العائلي وذاكرة الأهراءات التي لا تتوقّف عن النزف، نرى أنّ الحميميّة، لو صحّ التعبير، هي التي تطغى. في لوحات بعلبكي، يقف المتفرّج أمام الأثر حين يرسم الفنّان ويخلّد مشاويره اللونيّة، أمام النسخة اللونيّة الجامدة بلا خدوش، لوحات مفلترة ناصعة وصافية تصلنا برهافة وصدق. حول المعرض وأحوال المدينة المنكوبة وشجون الفنّ، يتحدّث الفنان إلى «العربي الجديد».

ضوء داخلي

نسأل أسامة بعلبكي، بدايةً، عن «ضوء داخلي»، العنوان الذي اختاره لمعرضه الذي يتضمّن ستّين عملاً، فيجيب: «ليس العنوان استثنائياً، ربما الرابط الذي نجده في أعمال المعرض وأبعاده هو هذا الضوء، العمق الداخلي والضوء الصادر عن الروح. أمّا الإضاءات الطبيعية أو الصناعية فتغدو مسألة تشكيل. وبهذا الشكل، يغدو العنوان شيئاً فشيئاً بديهياً».

ويوضّح: «ما يجمع بين الأعمال هو الضوء وفعاليته، لعبة الضوء واحتفاليته بشكل معين، الضوء الطالع من غلاف جمجمة هو خارجي وداخلي في آن. ذهول ضوئي، تعبّد ضوئي كأنّها أنفاق ضوئية موصولة ببعضها، بطلُ يلعب كلّ الوقت في التفاصيل بين لعبة الضوء والاختفاء والغياب والحضور».

نستفسر عن إمكانية ربط العنوان بهذه المدينة، فيقول: «بالطبع له علاقة بالمدينة، ليس فقط بالمدينة، بل بالطبيعة اللبنانية أو بالداخل أو الإضاءة التي تحكم حياتنا الداخلية. النغمة الداخلية التي ترافق أعمالي منذ البدايات هي خليط غريبٌ من نوعه، جمعٌ بين التشاؤم والإقبال على الحياة، بين الرغبة وعكسها. حتى في حياتي اليومية أنا هكذا بين هذين الحدّين. تستطيع أن تقول إنّه نفور من الحياة ووقوع في حبّها في آن».

يفتتح المعرض بلوحة تتضمّن بورتريهاً للرسّام الهولندي فينسنت فان غوغ ومن حوله أشخاص ينظرون إليه بذهول. يقول بعلبكي عن اللوحة: «تستطيع القول إنّها تحية للرسام، لحظّه العاثر ولتعاسته، تحيّة له كمرسَل خاسر. حظّه كان ملعوناً. اللوحة هي، نوعاً ما، محاولةٌ للسؤال: كيف أصبح قبلةً للمتفرّجين؟ كيف انتقل من أعمق قضية للنسيان إلى مولّد للحرارة والعاطفة في العالم؟».

ويضيف: «فان غوغ هو الرسّام الذي يجمع روحه الشخصية بالعالم. أفكاره الروحيّة تخطّى من خلالها فكرة الرسّام، برسائله وسلوكه وصدقه - صدق المهزوم الحقيقي القابع في العتمة والشقاء. هكذا هي القصّة بخيالها وتراجيديتها وشفافيتها. اخترتُ اللوحة للافتتاح ربما تماثلاً مع صورة الفنّان الذي يحب الواحد أن يكونه؛ الفنّان الراهب اللاعب بالرغبة، والمرتكز على الإشراق الضوئي والجمال والفوضى وكلّ الصور السحريّة التي لها إمكانية أن تبقى».

ملاحظات على الواقع

نسأله عن الأعمال المعروضة وعن مدى ارتباطها وعلاقتها بالواقع اللبناني اليوم، فيجيب: «يلتفت المعرض إلى المُعاش، فهو خلطة عجيبة تنطلق من ملاحظاتي على الواقع المحلّي اليوم. في الأعمال نوعٌ من الإحياء السينمائي ولمسة مشوّقة والقليل من الدراما، كلّ ذلك بحسب ما يتطلّب العمل من حركة. بنوع من الحدس، تتحرّك عملية الرسم بيسر بين الدماغ والعين والقلب واليد. هذه العملية تحصل بسهولة ودون أدنى التفاتة. هذا هو العالم الذي أراه، وفيه شيء من الواقع، ومنه المحلّي أيضاً، بدرجات متفاوتة».

نستطرد لنسأل عن المفارقات التي تشغل الأعمال المعروضة وهل هي مقصودة، فيقول: «كلّ هذه مفارقات من أشغال ساكنة وغنائية وصادمة ومتوتّرة، مزيج بين ظلام ونور، ثنائيات، حساسية الخطر والطمأنينة، كلّها معانٍ يتمّ صهرها في لحمة واحدة، ضرورات لوجود العمل أو ليبرّر نفسه لوناً أو شغفاً».

حضور الذاكرة

عن حضور الروح المحلّية في أعمال المعرض، يقول: «في الأعمال نكهة بيروتية من الهواء، المباني أو الأشخاص. الضوء اللبناني، المنظر الرعوي الريفي أيضاً، والذي يمكننا أن نراه أو نستعيده، بوصفه نغمة آتية من هذا التسلسل. طبعاً في الأعمال روح محلّية، لك أن تنظر إلى الأشياء القريبة منّي، حين أرسم عائلتي تخرج الأشياء على شكل مراقبة للذات وسبر لأغوار الداخل».

وعن حضور الذاكرة يقول: «بعض الأعمال فيه تذكّر طبعاً، وهي تبني عليه. حين أمرّ، مثلاً، بجانب بناية مساءً، أرى مكاناً أجرد ولكنّه جذاب، هذه الفوضوية غير المرئية فيها عضوية حيّة. هذه المواصفات كلّها تدخل في رأسي، لأنّني أجد فيها شيئاً من الألفة والحميمية، تتخطّر في بالي الصور وأركّبها وتبقى فيّ لسنوات. وهكذا، من خلال المراقبة والتخطّر طويلاً، تخرج هذه اللوحة بعد مسافة زمنيّة». نسأله عن مسألة المسافة الزمنيّة وما الذي تعطيه للّوحة المنجزة أو التي تتحضّر للإنجاز، فيجيب: «الانتظار الطويل يمنحني إمكانية مراكمة مئة زاوية وذكرى لمشهد في وقت محدّد ولحظات محدّدة. أراقب وأراكم، بمرور الوقت، هذا المشهد الجذّاب، الإضاءة النادرة المخيفة والوحشيّة نوعاً ما، الاختلاط الغريب بين الليل والنهار، كلّها تجتمع وتحملني إلى شيء آخر قابع في ذاكرتي هو ذاكرتي في الجنوب متنقلاً بين القرى والدساكر مشاهد من الرهبة والجمال، كلّ هذا التخزين لمشاهد يتم إنتاجها بنفس الطريقة، تصبح الأشياء «معجونة» بثقة وتأليف وقوة وسهولة والأهم بشيء من البصمة». نسأله، أيضاً، عن البصمة ومقوّمات اللوحة كي تبقى فيقول: «عدا عن الإمكانات الواقعية والموهبة الراسخة، أشعر بأنّ ما يبقى من العمل الفنّي هو الصدق في التلوين، الصدق هو مهمّة الرسّام. أضف إلى ذلك الاستغراق بالمادة والحساسية. ساعات العمل ليست بمُهمّة، وإنما الأساس هو الاستغراق فيه، يمكن أن نكتشف العمل ‹البرّاني› من الصميمي من هذه الإشكالية. آثار الريشة، نوعية اللون، وكيفية إطفائه، المزج بين الخيال والعاطفة، الصدق مع العمل المادّي، كلّها وقفات و‹تريكّات› تُبرز العمل وتجعل العمل ‹البراني› مكشوفاً. أضيف هنا أنّ الحرارة التي يصبّها الفنّان في لوحته مُعدية، لذلك مثلاً حين ندخل إلى فان غوغ ندخل كأنّنا في هالة لونيّة تحكي وتعاني وتفرح وتتمرّد. في العمل شيء من الحياة. كلّ هذه هي بصمات الفنّان الذي يتنفّس من خلالها بطريقة مقنعة تغدو بصمته التي تخرجه من طور الموت».

> ما من فنّان يمكنه ألّا يبني على تجارب من سبقوه
>
> المفارقة هي التي تُكهرب المعاني وتصنع اللوحة

ننظر مع أسامة بعلبكي إلى لوحات المناظر الطبيعيّة ونسأله عن علاقتها بالمدرسة اللبنانية وكيف تبني عليها، فيجيب: «في جانب أوّل، الموضوع له علاقة بطفولتي، فأنا تربّيتُ في الجنوب اللبناني خلال فترة الحرب، تربّيتُ بين الجبل والسفح والأودية وعشتُ طفولتي وشيئاً من يفاعتي. الأمر الثاني بالطبع هو الاستمرار والبناء على رسّامي المنظر اللبناني وتمثيلهم له. مثلاً، حين أفكّر في عمر الأنسي، قيصر الجميل، وصليبا الدويهي، هناك شيء متوسّطي يصدح في أعمالهم، تستطيع القول إنّ هناك ضوءاً نحاسياً فضّياً قوياً، ظلالاً كحليّة. من ينظر يجد هذه الاستمرارية بالطبع، أسطورة المنظر اللبناني موجودة بشكل ما، النباهة، اللون الأخضر وألوان خانقة أُخرى، كلّها ترد إلى ذلك المكان الخام».

ضوءٌ يوشك على المغادرة

لا يملّ بعلبكي (1978) من ملاحقة الواقع من نافذته الخاصّة ليرسمه على طريقته، فلا وجود لديه لمدن خالية من الأشجار، أو من ضوء القمر، أو من الشمس. معظم أعماله تنزع إلى التجريدية الشاعرية، وإبراز التباين بين العتمة والنور، فلا يكتمل الأزرق الذي يكشف تفاصيل المدينة في الليل من دون الأصفر أو البرتقالي في خلفية الأفق؛ لذلك غالباً ما ترسم لوحاته الغروب، وكأنه يشير إلى مفارقة وجودنا في عالم يوشك الضوء على مغادرته دوماً.

تصويب

كلُّ شيء هش

باسم النبريص

زمان كان حُبّ جيلي يتغذّى على كليشيهات الرومانس، ويمنعه الفقر المدقع من أيّة مبادرة نحو الطرف الآخر. وفي حالتي، كان الطرف الآخر هو من يبادر ويرسل الإشارات، والعجيب أنّ هذا الأمر استمرّ معي طوال الحياة، وكنتُ كلّما بادرَت واحدة، أهرب مثل أي جبان، مع أنّ حالي المادي تحسّن نسبياً، ولكنّ السنوات الأُولى من العشق تظلّ دامغة في الروح والسلوك، ويظلّ الواحد أسيراً لها للأبد.

أخيراً ها هي أطيافهنّ، تحوم في ليالي، في أحلك لياليّ. بناتٌ من أربع قارّات وثلاث ديانات ومن الصين كذلك. وجوه بريئة تهوّم وتنتعش في شكل روحي، بفضل مجموعة من الأشباح الإناث من جهات الكون الأربع.

أجل: منذ ذلك الحين، وعلى فترات متباعدة، يرحن يتجوّلن في ضوء القمر وعتمة الغرفة، كوجود بلون أبيض بخاري، مستحضِرات مكانتهنّ كأشباح عبرت ومضت مثل الحلم.

ولا يخلو الأمر، بعد سنوات عديدة، عندما أسجّل إخفاقاتي الرومانسية، من الابتسام المؤسي، كما يليق بمن عاش وعرف، أحنّ إلى بعضهنّ طبعاً، وأتمنّى لو عاد بي الزمن، فتزوجت هذه أو تلك. لكن ما يعزّيني، في عمرٍ بلا عزاءات، أنّ قصص الحُبّ مهما بلغت من أوج، لن تكون قوية لدرجة أن تتمكّن من تجاوُز الموت.

كلُّ شيء هشٌّ وفانٍ، ولا أحد مهما كان أقوى من الموت، حتى الجبل.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

إطلالة

كيف وجدت الحرب؟

ممدوح عزام

يمكن لرواية «الحرب والسلم» لتولستوي وحدها أن تُلخّص، بطريقة مثالية، كيف يمكن للحرب أن تَظهر في رواية ما. ثمّة من قال ما معناه إنّه لو كان بوسعنا أن نُعيد معركة بوردينو بين الروس والفرنسيّين لما كان بالوسع إدارتها أفضل من الشكل الذي كتبه عنها تولستوي. وغالبية القرّاء ينسون هذه الوقائع، فمجد الرواية الحقيقي لا يأتي من توثيق الحرب، أو إعادة تمثيلها، بل من حكاية الحُب.

يعود جورج أورويل من المشاركة في الحرب الأهلية الإسبانية مخذولاً ليكتب لنا كتاباً حزيناً هو «الحنين إلى كتالونيا»، وفيه يرى أنّ البطولة هي أن يتمكّن أحد أصدقائه من شراء علبتَي سجائر والعبور بها وسط حواجز المتحاربين.

يشعر المرء أحياناً، حين يقرأ عن الحرب، أنّه يقرأ عن بشر بلا مشاعر، إنّهم جنود وضبّاط ينفّذون الأوامر فقط دون أي إحساس أو تفكير. وإذا ما توفّرت لديهم تلك المشاعر فهي واحدة من اثنتين: إمّا بغضاء وكراهية ولّدها الخوف من الآخر، والرهبة أمام الموت القادم، والشعور بالخطر من وجود العدوّ، وإمّا مشاعر الندم والرفض للحرب التي يخوضونها مكرهين.

ثمّة من يخوض الحرب وهو يشعر بأنّها ضرورة. وقد لا تكتمل الحياة دون أن تَحدث تلك الحرب ويتحقّق الانتصار. لا حساب للنتائج غير نتيجة واحدة هي الانتصار على العدوّ. بينما تترك المشاعر والأحاسيس والوجدان وقضايا الضمير والموقف من القتل والتصفيات والمذابح، أو يؤجَّل البحث فيها. في العادة تُسجّل الشعوب نتائج الحرب في روايات ومسرحيات وقصائد وأفلام وقضايا فلسفية، وبعض تلك الروايات تستطيع أن تعبُر الثقافات واللغات، وتتخطّى عوائق الأخلاق المختلفة لتصبح وجداناً إنسانياً عامّاً، وهي في الغالب تحاول أن تتحدّث من وجهة نظر الضمير المذنِب المعذَّب من النتائج الكارثية التي تجلبها الحروب.

كيف يمكن لأي حرب أن تتخطّى الزمان والمكان في رواية؟ يضع همنغواي في روايته «وداع للسلاح» الحرب خلف ظهره، بينما يمجد الحُب. إذا كان هذا هو سبب شهرة الرواية، أو سبب شهرة «السلم والحرب» وترجمتها إلى معظم لغات العالم، فإنّنا أمام معنى وجداني عميق يقول إن قرّاء الروايات يفضّلون الحُب على الحرب أيضاً. من الصعب أن تجد من يتحدّى هذه المقولة، كأنّ البشر يلجؤون للرواية كتابة وقراءة كتعويذة ضدّ الحرب.

على الرغم من الحروب الكثيرة التي خاضها العرب، فإنّ تجلّيات الحرب لا تزال قليلة نسبياً في الرواية، ولم تكن رواية يوسف العقيد «الحرب في برّ مصر» عن الحرب، بل عن قهر الإنسان في الداخل بالاستفادة من ظرف الحرب.

يبدو كأنّ الحرب أدبياً قد آلت لأن تكون مسؤولية روائية في التعبير، أكثر من الشعر والقصّة والمسرح، وهي تغدو بسبب ذلك مسؤولية أخلاقية على عاتق الروائيّين أيضاً، فالسؤال لم يعُد يتعلّق بالوقائع، بل بالمواقف من الحرب، عمّ تفعله الحرب بالبشر سواء من حيث خسائر الأرواح، أو دمارها النفسي، وعمّ يفعله الروائي بالحرب في روايته، هل يُسجّل وقائعها محايداً، أم مؤيّداً ومناصراً إحدى وجهات الحرب؟ أم يتحدّاها بالقيم الإنسانية الأُخرى التي تقول إنّ مشعلي الحروب هُم أعداء الإنسان في كلّ مكان؟

(روائي من سورية)

تراجيديا كونية لا تدعو إلى التعاطف

عند أوّل صدمة مع العزلة

يقول الفنّان اللبناني إنّ في لوحاته شيئاً من التراجيديا، ولكنّه يستدرك: «تستطيع أن تقول إنّها تراجيديا ممسرحة دون ابتذال عاطفي»

أكريليك على قماش، 150 × 180 سم (2022/ من المعرض)

يعتبر أسامة بعلبكي أنّه «ما من فنّان يمكنه ألّا يبني على من سبقوه، ينبغي على الفنّان أن يكون مشتبكاً مع من سبقوه، بانياً على إرثهم وتراثهم، الارتباط معهم بشبكة زمنية. عليه أن يربط مع المحلّي والعالمي في الوقت ذاته، يحصل ذلك من دون تخطيط، من خلال هذا التجوال في الإحالات والتأثّرات والقابلية للامتثال بمدرسة لونية فطرية بعيداً عن البساطة، حين تدرك من أين تأتي وإلى أين أنت ذاهب تبدأ القصّة».

في زاوية أُخرى، وأمام أعمال كورونا وغيرها نستفسر من الفنّان عن حضور التراجيديا في أعماله، فيقول: «اللوحات فيها شيء من التراجيديا، ولكن تستطيع أن تقول إنّها تراجيديا ممسرحة دون ابتذال عاطفي. ممسرحة بمعنى أنّها تراجيديا على منصّة، ليست التراجيديا التي تدعونا إلى التعاطف. كلّ هذا يحدث بما يلزم اللوحة. التراجيديا تحضر لتخدم اللون والأنفاس وليست للتجارة. كلّ فنّ يرسم التراجيديا مؤطّرة يكون فيه نوع من التواطؤ. دائماً ما أحرص على أن يكون ميزان العاطفة لديّ مدوزناً، السخونة مقابلها برودة، أو بمعنى آخر تفتير للمعنى والرغبة بعد إثارة لعاب العاطفة. هكذا أشتغل كي أكسر أوقات الروح التي تُظهر وجدانيّة كثيراً، يمكن أن ألجأ مثلاً إلى شيء من الدعابة المبطنة، غمزة مجّانية، خليط من الجوهري والمجّاني. هذا العمل بالمقادير المدروسة هو الأساس، مثلاً في لوحة بيروت ما بعد كارثة الانفجار، خلطنا الواقع بالشاشات والفيديو. المفارقة في هذا العمل هي التي كهربت المعاني وصنعت اللوحة، وهذا النوع من المقادير وعمليات حقن الجدّي بالهزلي وحقن الجوهري بالمجّاني، كلّها كفيلة بتقديم هذه المخاتلات البصرية».

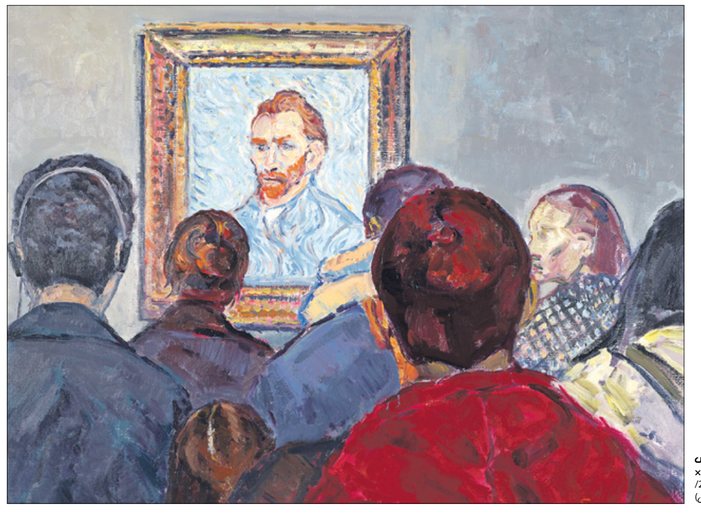

قبل أن نختم، نسأله عن هذا الغناء الحزين الذي يُغلّف أقبية اللوحات وخلفياتها، فيجيب: «يمكننا أن نقول ذلك، خصوصاً في لوحات الموت وسلسلة كورونا. كلّ هذا الحزن خرج بطريقته القلقة عند أوّل صدمة مع العزلة، فغدت الريشة تتحرّك بمزاج تأبيني... أو مثلاً حين وضعتُ عائلتي وكأنّهم على مدخل مسرح وعلى علاقة وتماسّ مع الجمهور. الاصطفاف يلغي نفقاً زمنياً بين المشاهد والناس. كلّ هذه الأشياء تُلغي تلك الرغبة بالارتداد إلى زمن سحيق». ويضيف: «يمكن أن أوافق على الغنائية.. ولكن أيّ غنائية؟ ربما نجد غنائيّة تخالطها دينامية خطر، غنائية مدينية وشحوب العصر، غنائية الترقّب والقلق. مواصفاتها هذه قد تلغيها من جوّ الغنائيات المعروفة، ولكن تبقى هذا الشحوب والتلوث والتلبّد والمزاج المختنق بعيداً عن الاحتفاء. نعم أوافق على الغنائية لكنها متقهقرة، أو مدنّسة، غنائية تشتغل الوقت كلّه لتدافع عن نفسها».

... وهبة

فعاليات

عند السادسة من مساء اليوم الجمعة، تنطلق في «دار الثقافة السليمانية» بتونس العاصمة فعاليات مهرجان **في بلاد الأطفال**، وتتواصل حتى بعد غدٍ الأحد. تُقدّم التظاهرة عروضاً مسرحية وراقصة مُوجّهة للأطفال، بالإضافة إلى أمسيات غنائية وعروض الدُّمى، كذلك تُخصّص حواريات للكبار بهدف تعزيز الترابط الأُسري.

حين ينطق الحجر عنوان حلقة دراسية تُنظّمها مكتبة «خان الجنوب» في برلين بين 14 و19 تمّوز/ يوليو المُقبل، لمناقشة أعمال سينمائية ونظرية وأدبية حول أطروحة «الماركسية السحرية»، تشتبك مع السياقات التاريخية للعالم العربي والجنوب العالمي. الورشة من تقديم الباحثة الفلسطينية **سنابل عبد الرحمن** والروائي المصري **هيثم الورداني** (الصورة).

أكثر من 750 صفحة من الشرائط المصوّرة يُتيحها «مركز بومبيدو» في باريس عبر معرض جماعي يضمّ أعمال 130 فنّاناً من أوروبا والولايات المتّحدة الأميركية واليابان، ويستمرّ حتى 4 تشرين الثاني/ نوفمبر المُقبل. تستعيد التظاهرة **ستّين عاماً من تاريخ القصص المُصوَّرة و«المانغا»** وأغلفة مطبوعات لم تُنشر.

حتى الرابع من الشهر المُقبل، تتواصل فعاليات الدورة الثانية عشرة من **المعرض الجهوي للكتاب** في شفشاون، التي انطلقت أمس الخميس في ساحة بئر انزران بالمدينة المغربية. تحتفي نسخة هذا العام بالشاعر المغربي **عبد الكريم الطبّال** (1931/الصورة)، وتُشارك فيها دور نشر محلّية، وتتضمّن لقاءات ثقافية.